المبحث الثاني

في التكوين والانتشار

أولاً: مصادر التكوين[1].

أ- الأنثروبولوجيا والدراسات الوصفية للرحالة:

تطورت الأنثروبولوجيا مثل أي علم من العلوم الاجتماعية الأخرى في جانبين على الأقل:

الأول: يرتبط بالاستخدامات الاجتماعية والسياسية لها.

الثاني: بالخصائص والمفاهيم وطرائق البحث التي تتسم بها.

ومع أن التطور في المجالين السابقين يحمل عناصر التأثر والتأثير المتبادلين إلا أنه لابد من التمييز بينهما عند البحث في تطور الأنثروبولوجيا، وسوف نعمد لدراسة التطور التاريخي الذي يشمل الجانبين معاً لنوضح أن العلوم في ارتقائها وتطورها تقع ضمن منظومة علمية تتشابك فيها المعارف والفلسفات، كما أن نتائج التطبيق ترتبط بالتوجهات السياسية، أما عناصر التحقق والاستكشاف والتنبؤ فإنها من خصائص البحث العلمي.

وقد اعتمدت الأصول الأولى للأنثروبولوجيا على المستويين النظري والمنهجي في دراسة ما خلّفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب د. صفوح الأخرس، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مطبعة «أبوبكر الرازي»، دمشق ١٩٨٣-١٩٨٤، ص ١١-١٢ (مع الإشارة إلى إضافات قدمناها في غير مكان).

obeikandl.com

معقدة على الوصف والتحليل بقصد استنباط أنماط من الإنجازات الحضارية الهامة، والتي تشكل منعطفات في تاريخ تطور الإنسان منذ وجوده على سطح الأرض ومغامراته بحثاً عن الاستقرار، ومن تلك المنعطفات الأساسية التي حصلت عليها الأنثربوولوجيا على طريق الإنجازات الحضارية الهامة للإنسان اكتشاف النار واختراع بعض الأدوات والفنون المفيدة أو صناعتها، أو البدايات الأولى للتقانات المختلفة المستخدمة في إنتاج الطعام.

وبدأت منذ عصر الاكتشافات الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً تتراكم كمية من المعلومات الأنثروبولوجية تجمعت على يد الرحالة والمبشرين والجنود، خلفت تجميعاً ضخماً للمادة، امتزج فيها الوصف بالتراث الشعبي وحكايات العجائز والمسنين، حيث كتب المؤرخون عن خبراتهم الشخصية والأقاصيص والأساطير التي صادفوها أو سمعوها خلال رحلاتهم. وهكذا فإن مصادر المعلومات كانت مبنية على التحليلات الصورية وما تتناقله الأفكار والألسن؛ لهذا تعرضت جوانب كثيرة من هذه المعلومات للتشويه؛ ذلك أن معظم الرحالة كانوا ينظرون إلى الشعوب والحضارات الأجنبية من خلال مناظر ميولهم الثقافية المتعصبة[1].

وأخذ اصطلاح الأنثروبولوجيا ينتشر تدريجياً مع بداية القرن السادس عشر باعتماده على نظرة أكثر علمية وجدية من السابق، حيث تجلى هذا

---

(١) د. محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات عملية، سلسلة علم الاجتماع المعاصر الكتاب الثالث والثلاثون، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص (٤١-٤٢).

عند العلامة الإنكليزي (هادون) الذي يعد أول من تتبع تاريخ استخدام مصطلح الأنثروبولوجيا ليعود به إلى الحضارة الإغريقية، فقد رأى أن الفيلسوف (أرسطو) قد استخدم هذا الاصطلاح للإشارة إلى «الشخص الذي يتحدث عن نفسه»، وظهر أيضاً هذا الاصطلاح كعنوان كتاب مستقل في عام (١٥٠١) للمفكر (هانت) تناول فيه دراسة خصائص جسم الإنسان من الناحية التشريحية[١](كما أشرنا سابقًا). كما ظهر اصطلاح الأنثربولوجيا في اللغة الإنكليزية عام (١٦٥٥) في كتاب يبحث عن الطبيعة البشرية. وقد انقسمت أبحاث هذا الكتاب إلى قسمين رئيسين: يرتبط القسم الأول بعلم التشريح، حيث لا زال هذا العلم حتى الوقت الحاضر يشكل دعامة رئيسة للأنثروبولوجيا بشكل عام والأنثروبولوجيا الطبيعية بشكل خاص، أما القسم الآخر فيرتبط بعلم النفس.

ولعل هذا التزاوج بين علم النفس وعلم التشريح في نطاق المفهوم القديم للأنثروبولوجيا يشير إلى ترابط الروح مع الجسد في نطاق الحياة والموت عند الأقدمين، حيث كان من غير المقبول على ما يبدو أن تبحث بخصائص الإنسان الفيزيولوجية دون أن تستكمل بقسم عن خصائصه الروحية المرتبطة في ذهن الأوائل بعلم النفس.

وقد أخذ اصطلاح الأنثروبولوجيا ينتشر تدريجياً ويكتسب أبعاده العلمية الواضحة بتخطيه نطاق الروح والجسد إلى الأصول الاجتماعية

---

(١) الدكتور عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف بمصر، الطباعة الأولى، ١٩٧٧م.

obeikandi.com

والحضارية والثقافة والبيولوجية المكونة لسلوك الإنسان وعاداته وتقاليده، حيث تميز في القرن الثامن عشر بالتوجه نحو البناء الخاص المتميز للمجتمع، وقد كانت دراسات الفيلسوف الفرنسي (مونتسكيو) في كتابه «روح القوانين» منطلقًا للتمييز بين البناء الاجتماعي ونظام القيم، ومنطلقاً للتوجه نحو الأصول التاريخية للأنساق والبُنى الاجتماعية، فاتجه علماء الأنثربولوجيا نحو المجتمعات البدائية لأنهم رأوا فيها مصدراً ثميناً لجمع المعلومات عن مراحل تاريخية يفترض أن مجتمعات معاصرة مرت بها.

«والواقع أن الباحث في تراجم علماء المسلمين العرب يقف على العديد من الأسماء العربية التي بلغ أصحابها القمة في شق الأقطار والتجوال في الفيافي والقِفَار وطلب العلم ونشره ومجالسة أعلامه من ناحية دراسة الأقاليم وعادات الأمم وثقافاتها من ناحية أخرى»[1]، ولعل من أهم هؤلاء الرحالة العرب الذين أسهموا بدور رائد في تكوين المادة الأنثربولوجية الرحالة العربي ابن خلدون (عبدالرحمن ولي الدين بن خلدون) وما تتضمنه / مقدمة ابن خلدون/ هذا الكتاب الشهير أكبر دليل على ذلك.

والرحالة العربي المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري) الذي تعرض لدراسة النظم الاجتماعية والقرابية

---

(١) د. زكي محمد إسماعيل: «ملامح الدراسات الأنثروبولوجية في تراث المفكرين المسلمين»، مجلة العلوم الاجتماعية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

والأيكولوجية «أي التي تهتم بعلاقة الإنسان بالبيئة»، وذلك من خلال الوصف الأثنوغرافي إلى مرحلة التحليل المنهجي (الأثنولوجي).

ولعل في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» المادة الأنثروبولوجية التي دعمت مصدر تكوين علم الإنسان فمثلاً يقول: «وما تمَّ لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرس علم الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتفوقين، وحضوري مجالس القصاص والمذكورين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراتي على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وبحثي عن الأحرجة حتى أحصيتها»[1].

ويعد هذا العمل عملاً انثروبولوجيا بحتاً، وإسهاماً معرفياً واضحاً من ضمن مصادر الدراسات الوصفية للرحالة.

وهذا البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) وهو أحد الرحالة الذين قدموا بشكل واضح للمادة الأنثربولوجية. ولعل كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة) يشير بوضوح إلى مفاهيم الأنثروبولوجيا والأثنوغرافيا والأثنولوجيا، حيث يحلل البناء

---

(١) المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الطبعة الثانية، ١٩٠٩ ص ٢.

obeikandl.com

الاجتماعي للهند وأنظمة هذا البناء المختلفة (الدينية والقضائية والأسرية والطبقية وغيرها). والأنماط الثقافية المتعددة، وهو لا يقف عند الوصف بل يقارن ويحلل ويستنتج ويعمم.. إلخ.

وبشكل عام فقد جمع البيروني عن الهند في تحقيقه كل ما يهم الأنثروبولوجي أن يقف عنده من شتى النظم الاجتماعية والسمات الثقافية في البحث الأنثروبولوجي الميداني.

ومن الرحالة العرب أيضاً **ابن جبير** (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي) الذي جاء كتابه سجلاً شاملاً لكل ما شاهد وعاين من عادات وقيم وثقافات البلدان التي زارها وطوف بها وهو يسجل ما حدث في رحلته يوماً بعد يوم، ولا يترك شاردة أو واردة مما رأى وعاين إلا كتب عنها وسجلها[1] ونقدها وحللها.

وكم نذكر من الرحالة العرب أمثال **ابن بطوطة** (أبو عبدالله بن إبراهيم اللواتي) نسبة إلى إحدى قبائل البربر وهو المعروف بابن بطوطة والملقب شمس الدين. وقد أضاف للمادة الأنثروبولوجية من خلال كتابه «رحلة ابن بطوطة». **والمسعودي** (أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي الشافعي) وكتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر).

إذن تعد الدراسات الوصفية للرحالة العرب من أهم المصادر المعرفية لعلم الإنسان، والتي بمجملها - أي الدراسات الوصفية التي قدموها عبر

---

(١) طبعة دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م.

رحلاتهم - تركز على وصف عادات وأخلاق وتقاليد وملابس ومساكن الشعوب والنظم الاجتماعية والأنماط الثقافية التي ميزت هذه الشعوب والمجتمعات التي جابوها في ترحالهم.

ب- الأنثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية:

بدأت دراسات متعددة في أوربا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حول البقايا العظمية التي عثر عليها في كثير من الأماكن في القارة الأوربية، وحول أدوات إشعال النار عن طريق الاحتكاك، وقد اعتمدت مثل هذه الدراسات على التقدم الذي أحرزته الدراسات الجيولوجية وعلم الحفريات القديمة، ويعد العالم (لينو) أول من حاول أن يحصر ويصنف الأجناس البشرية المختلفة، وكان ذلك نحو عام (١٧٥٠).

في حين كانت البدايات الأولى لتقرير وجود الإنسان في أوربا خلال العصر الجليدي كانت على يد العالم الفرنسي (بوشيه دي بيرت)، حيث عثر في عام (١٨٣٠) على أدوات حجرية في وادي (سوم)، ونشر نتائج دراساته واكتشافاته في مجموعة من الدراسات ظهرت بين عام (١٨٤٧) حتى (١٨٦٤)، وعرض (سيرجون ليبوك) في عام (١٨٦٥) دراسة لخص فيها كل المادة وكل المعلومات الموجودة عن ثقافات العصر الحجري، وأوضح فيها لأول مرّة الفرق بين ثقافات العصر الحجري القديم وثقافات العصر الحجري الحديث.

وفي الفترة نفسها تقريباً عثر على أول دليل مباشر على وجود الإنسان

القديم في ألمانيا سنة (١٨٦٥)، وهو الاكتشاف الذي عرف باسم إنسان (نياندرتال) نسبة إلى القرية التي عثر عليه فيها، وهذا كان ركيزة للأنثروبولوجيا، فقد كانت بداية بحوث علْمَي الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية[1].

جـ- الأنثروبولوجيا ودراسات شعوب ما قبل التاريخ والشعوب البدائية:

تراكمت معلومات كثيرة، جمعت من شعوب متعددة في القرن التاسع عشر، حيث عرفت الأنثروبولوجيا طفرة جديدة تعد في الواقع بداية هذا العلم، ويمكن تحديد ذلك ما بين عامي (١٨٦٠-١٨٨٠) حين ظهرت معظم مؤلفات المدرسة التطورية ومنها «حق الأمومة» (لباخ أوفن) و«القانون القديم» (لماين) عام (١٨٦١). كما ظهر عام (١٨٦٥) كتاب (تايلور) بعنوان «أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري» وقد أتبعه عام (١٨٧١) بكتابه «المجتمع البدائي»، هذا إلى جانب كتاب (مورغان) عن «نظم القرابة» عام (١٨٦٩) وكتابه عن «المجتمع القديم» عام (١٨٧٧).

وقد حدد علماء هذه المرحلة للأنثروبولوجيا منحى علمياً يهتم بدراسة شعوب ما قبل التاريخ، ودراسة الشعوب البدائية المعاصرة، وتجلّى هذا في دراستهم لحضارة المجتمعات قيد الدراسة، وما يتضمنه ذلك من دراسة للعادات والتقاليد واللغات المرتبطة بها. كما يبدو ذلك في كتاب (تايلور) «الثقافة البدائية» وكتاب «المجتمع القديم» لمورغان.

---

(١) د. محمد الجوهري، مرجع سابق، ص (٤٣).

ولعل جوهر الاهتمام في عملية فهم المجتمعات البدائية نابع في اعتقادنا عن عدة مسائل رئيسة، ترتبط **المسألة الأولى** بما ذكر عن استخدامات الأنثروبولوجيا من قبل المستعمرين لتطوير الشعوب المستعمرة لحكمهم وبخاصة في مرحلة الاستعمار القديم، حتى بات ذلك الاستخدام سمَةً من سمات التعريف بالأنثروبولوجيا. وتتعلق **المسألة الثانية**، التي تفسر اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الأوائل بدراسة المجتمعات البدائية بما تتصف به تلك المجتمعات من سمات رئيسة تشكل مجالاً خصباً للأنثروبولوجي يربط فيه بين أصل الإنسان وحاضره، من خلال دراسة المجتمعات البدائية وتطورها إلى المجتمعات المعاصرة مروراً بالمجتمعات شبه البدائية.

أي من خلال التعرف على الأصول الأولى للمجتمعات الإنسانية، إضافة إلى ذلك فإن امتحان الافتراضات النظرية التي سيرت علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية في المرحلة التقليدية كان يتطلب دراسة مجتمعات صغيرة الحجم، والمجتمعات البدائية كما هو معلوم مجتمعات ترتبط بالتكون المبني على رباط الدم وأسلوب معين في الإنتاج الاقتصادي يتراوح من مرحلة قطف الثمار والصيد والرعي إلى مرحلة الزراعة. والأفراد في هذه المجتمعات يتدربون على قيم الجماعة ويتمسكون بها فتذوب شخصية الفرد في شخصية الجماعة، ويغدو الفرد والجماعة في وحدة متماثلة، يعبر الفرد عن نفسه بلفظ (نحن) مشيراً بذلك إلى تفاعله مع الجماعة، وإلى تعريف نفسه بقيمها ومثلها العليا. ويكون التعبير عن قيم الجماعة بشكل ردود أفعال آلية لا تفكير فيها، حيث معايير الجماعة هي

التي تؤثر في سلوك الفرد وآليته، كما أن الأفراد لا يمكن لهم أن يغيروا من وضعهم الاجتماعي شيئًا كونه موروثاً في المجتمع، فالأفراد يؤدون أدواراً متشابهة ويخضعون لعوامل واحدة في حياتهم العملية؛ لأن الكثافة السكانية قليلة وتقسيم العمل أو توزيعة بدائي وضعيف، أما العلاقات والأدوار الاجتماعية فتحدد حسب النوع (ذكوراً - إناثًا) والسن (أطفالاً - شباباً - كهولاً - شيوخاً) والمراكز في النظام العائلي (آباء - أمهات - أبناء - بنات - أعماماً - عمات - أخوالاً) . . . إلخ، كما تقوم علميات الضبط الاجتماعي على أساس التقليد؛ حيث يكون التعبير عنها عن طريق الكلام أو الإشارات أو أنماط متفق عليها.

أما النظام السياسي فهو بسيط ومحدود، وقد تفتقر إلى وجوده بعض المجتمعات البدائية التي يسود فيها اعتقاد قوى الأشياء المقدسة، وينشأ الشعور بالخطأ والصواب من جذور لا شعورية جماعية؛ لذلك يكون شعوراً قوياً وجبرياً وغير خاضع لمنظور الفرد.

وهكذا يتمثل النظام الأساسي الذي يربط أفراد المجتمع معاً بالنظام الأخلاقي القائم على أساس مفاهيم أخلاقية خاصة بالواجب والخير والقوى والغيبية ومصلحة الجماعة، وذلك حسب كل مجتمع، وتكون هذه المفاهيم بالنسبة للأفراد أقوى من المفاهيم القائمة على أساس المصلحة الشخصية والمادية، والمعرفة التي يتعلمها الأفراد من الحياة العملية والتجارب اليومية التي يعيدونها، فالمجتمع البدائي بسيط بأدواته من الناحية التكنولوجية، إلا أنه معقد في نظمه الاجتماعية وفلسفاته.

هذا وقد تجلت هذه الدراسات عند أنصار المدرسة التطورية التي رأت أن التقدم يتبلور من خلال الانتقال من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة البدائية، من هذه إلى البربرية، ومنها إلى التمدُّن، ويتضح هذا من تأكيد كلٍّ من (مورغان) و(تايلور) بأن الجنس البشري قد عرف شكلاً موحداً في نشأته، وتجربته وتقدمه، حيث يَعُدُّ (مورغان) التطورَ بمثابة خطٍّ مستقيم، فالبدائية حالة سبقت البربرية، وهذه سابقة على التمدن، وهكذا يتبين لنا سبب افتراض بعض الأنثروبولوجيين الأوائل أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية هو أهم ما يميز الأنثربولوجيا عن العلوم الأخرى[1].

والجدير بالذكر أنه لم تزل توجد بعض المجتمعات البدائية في أفريقيا، وأندونيسيا، وفي نطاق ضيق من إستراليا، باقية على ما هي عليه بسبب العزلة وسوء الأحوال المناخية والبيئية والاستعمار، إلا أن هذه المجتمعات في طريقها للزوال بسبب عوامل التقدم الذاتي لها، وتحولها إلى مجتمعات متمدنة، كما عمد الاستعمار الاستيطاني بشكله القديم إلى قتل معظم أفراد تلك المجتمعات، ليفسح المجال أمام علميات استيطان جديد[2]. فقضى على حضارة القبائل البدائية وسيطر عليها، لتعيش حياة تختلف تماماً عن حياتها السابقة، وهذا ما يحدث في جنوب أفريقيا وروديسيا، فإن أغلبية الأفريقيين يعيشون حياة يسودها الجهل والفقر والمرض، حيث يقومون بالأعمال اليدوية المرهقة، بينما يعيش البِيْضُ في يُسْرٍ ورخاء.

---

(١) د. جيرار لكلرك، ترجمة د. جورج كتورة، «الأنثربولوجيا والاستعمار» معهد الإنماء العربي، كتاب الفكر العربي (٢) الطبعة الأولى، بيروت، ص (٢٤-٢٥).

(٢) د. عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٦٥.

وهكذا اقتصر اهتمام علماء الأنثروبولوجيا التقليدية على تحليل الأصول التاريخية لبعض المجتمعات البدائية ورصد اتجاه التغيرات التي تحدث فيها بقصد الوصول إلى فهم لواقع المجتمعات الأوروبية، وقد كان الافتراض النظري الذي سير تلك الدراسات أن مراحل تطور المجتمعات الإنسانية واحدة، وبالتالي فإنه في حال تعذر دراسة الأصول التاريخية لمجتمعٍ ما فإنه من الممكن دراسة مجتمعات أخرى في مرحلة تطور أدنى من أجل الوصول إلى جذور المجتمعات المعاصرة.

غير أن هذا الافتراض النظري بدأ يتضاءل في الوقت الراهن؛ نظراً لظهور دراسات أثبتت أن أنساق تطور المجتمعات لا تتم عادة بشكل واحد. وعلى هذا فإن دراسة المجتمعات البدائية في أفريقيا قد لا يؤدي إلى فهم واقع المجتمعات الأوروبية المعاصرة، نظراً لتشابك آلية تطور المجتمعات بفعل التولُّد الذاتي مع التغيرات التي تحدث في المنظومة الإنسانية وبخاصة بسبب انتصار الحضارات وتبادل المعلومات وسيطرة أنماط إنتاجية عالمية على كثير من الأسواق المحلية.

د- الأنثروبولوجيا والحملات الاستعمارية بشكليها القديم والحديث:

استناداً لما سبق، حاول كثير من الأنثروبولوجيين تبرير الحملات الاستعمارية والتبشيرية التي اجتاحت الشعوب البدائية؛ حجتهم في ذلك نقل هذه الشعوب إلى مرحلة المدنية والتقدم (أي عقلنة ما يمتاز الاستعمار الحديث به من عنف ونهب) فهذا برأيهم شرعي وضروري وإنساني ومتميز

عن الاستعمار القديم؛ لأنه حدث يسوغه تفوق المجتمع العلمي بخاصة في مجال العلوم الاجتماعية. وهكذا زعم (لورا بوليه) أحد منظِّري الإمبريالية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر حين درس في كتابه «الاستعمار لدى الشعوب الحديثة»، لا «المظهر الجمالي أو البطولي في الاستعمار بل المظهر الاجتماعي التجريبي» ومن هنا رأى ضرورة تحرك كل الإمكانات التاريخية والاجتماعية والديموغرافية إلى جانب مصادر الاقتصاد السياسي وإمكاناته.

ويتبلور تبربر الأنثروبولوجيا للاستعمار عند (ليبوك) الذي يؤكد على أهمية دراسة الحياة البدائية للإمبراطورية البريطانية التي يشكل أبناؤها (برأيه) أعلى درجات المدنية.

ومن خلال ما يقوله (هونتز) أحد العاملين الميدانيين نستنتج أن غاية دراستهم تتركز حول الدراسة المعمقة لتاريخ الشعوب البدائية لمعرفة عاداتها وحاجاتها ونقاط ضعفها لتتوفر لهم من خلال ذلك قاعدة للإرشادات السياسية والسيطرة الإدارية[1].

وانطلاقاً من ذلك اتجهت الدراسات الأنثروبولوجية في القرن التاسع عشر نحو دراسة النظم والبُنى الاجتماعية من منظور تطوري، مستهدفةً البحثَ في جذور الماضي؛ لتبيِّن المراحل التي مرَّ بها النظام الاجتماعي، وقد كان النسق العام لهذه الدراسات يشابه منحى الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية التي اهتمت بدراسة أصل الإنسان ومراحل تطوره ونشوئه.

---

(١) المرجع السابق، ص (٣٤).

وقد كان الافتراض الأساسي (الذي سير تلك البحوث في تلك المرحلة) أن كل مرحلة تاريخية اتّبعت في أشكال تطورها اتجاهات متباينةً ترتبط بتراث الماضي من جهة، وبالواقع الراهن من جهة أخرى.

وقد كان لفكرة الانتشار الحضاري الأثرُ الكبيرُ في نقلة الدراسات الأنثروبولوجية إلى مرحلة تدرس النظام الاجتماعي على أنه نظام إنساني يمكن أن ينشأ في غير المكان الذي ولد فيه، فقد تولد بعض الأنظمة الاجتماعية والأطُر الحضارية في مكان وتنتشر إلى مكان آخر حيث تتفاعل مع معطيات المجتمع، وتولّد (بالتالي) نسقاً جديداً من البنى الاجتماعية والعلاقات التي تتميز عما كانت عليه في مكان ولادتها، وهكذا كان لابد من التمييز بين مفاهيم ثلاثة في الأنثروبولوجيا ترتبط بنشأة النظام وتطوره وانتشاره.

وقد اتجهت البحوث الأنثروبولوجية في القرن العشرين نحو إيجاد القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للاستعمار الجديد، حيث تجلّى هذا الأمر بتحديث بعض الجوانب في البنى الاقتصادية والاجتماعية بما يعمل على استيعاب المعطيات الحضارية والتكنولوجية للمجتمع الغربي، فكان لابد من تحديث بعض الأنظمة القضائية والإدارية في كثير من المجتمعات الأفريقية ومراجعتها بما يحقق الانسجام والتواؤم بين تلك الأنظمة، والاستطالات الاستعمارية للمجتمع الرأسمالي. ولعل أبرز مثال على ذلك اللجنةُ التي أوجدها حاكم أفريقيا الغربية للدراسات التاريخية والعلمية لأفريقيا الغربية الفرنسية، فقد قدمت تلك اللجنة معلوماتٍ

مفصلةً عن أنظمة في القانون والإدارة المدنية لمجتمعات أوربية وأفريقية استخدمت في تحديث أنظمة في القضاء في مناطق متعددة في أفريقيا، وقد سهلت تلك العمليات الأعمال التجارية والاقتصادية والاجتماعية للشركات الرأسمالية الاحتكارية[1].

وقد كان لانتشار المدرسة الوظيفية في نطاق الدراسات الاجتماعية الأثر البارز في تحقيق الانسجام بين الشروط الجديدة للمجتمعات النامية والمتطلبات الأساسية للمجتمعات الغربية حين حددت كتابات (مالينوفسكي) الشروط الجديدة للأنثروبولوجيا بالمعنى المعاصر للكلمة، وذلك ما بين (١٩٠٥-١٩٢٠) إذ لم يَعُدَّ الأنثروبولوجيا لغةً مبهمةً أو غيرَ أساسية لا علاقة لها بالأيديولوجية الاستعمارية، بل على العكس لقد عدها شكلاً مميزاً من أشكال الثقافة الغربية، بخاصة حين تتصدى نظرياً للثقافات الأخرى، وبهذا تكمن المواجهة مع حضارته الخاصة. وقد فضح (في مقال له بعنوان: أفريقيا ١٩٣٠) الصفةَ غير الإنسانية للتقدم التقني الذي يحول الإنسان إلى آلة، فلم تعد الأنثروبولوجيا الحارس الأعمى للمدنية، بل حارس الحياة الأصلية إزاء إحباطات المجتمع الصناعي. هذا وقد غدت دراسة أشكال الحياة الإنسانية تشكل (برأيه) أحد ملاجئ الهرب من سجن الثقافة الآلي، فالأنثروبولوجيا بالنسبة له شكلٌ من أشكال الهرب الرومنطيقي بعيداً عن ثقافته المقبولة لدى مجتمعه، وبالنسبة للفترة السابقة

(١) انظر المرجع السابق، لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع والجهود التي تمت لنقل المعلومات حول أنظمة القضاء السوداني، ص (٤١).

لم تكن الدراسات الأنثروبولوجية تتعدى دراسة المجتمعات البدائية غير المتمدنة، وذلك بهدف إيجاد الطريقة التي ستتكيف بها هذه المجتمعات مع العالم الحديث، وقد تجلّى هذا كما رأينا في المدرسة التطورية، أما بالنسبة (لمالينوفسكي) فالأمر أبعد من ذلك فهو يَعُدُّ الأنثروبولوجيا ثمرة لقاء الثقافة الغربية مع ثقافات أخرى، لا بالمعنى الذي عفى عليه الزمن. فالإعجاب الأولي (الذي شعر به البريطاني أمام شعوب الهند) قبل تحوله بدافع الضروريات الاستعمارية إلى احتقار، وقبل أن تتحول الفروقات إلى سياسة عرقية، هذا الإعجاب كان الشرط الحقيقي لقيام الأنثروبولوجيا. فهي وليدة الآثار الأصلية. وهو يعد الدراسات الأنثروبولوجية القديمة غير مقبولة ولا أصيلة حيث تعرِّي الفروقات برأيه عن طبيعتها حين تضعها في إطارها؛ فتصفها بالغرابة، وتدخلها مفاهيم كلية شاملة مثل: (الطبيعية) و(الحيوانية) و(العقلية ما قبل المنطقية).. إلخ. بدل أن تعمد إلى مقارنات ضخمة، فعلى الأنثروبولوجيا (كما يقول) أن تعمل ميدانيًا لتفهم المجتمع من الداخل.

إن هدم نظرية الانتقال من البسيط إلى المركب في كل مجال، ومن الأسفل إلى الأعلى على مستوى المجتمعات الإنسانية يعني في الوقت ذاته هدم أسس التعالي الغربي.

فإن تقدم مجتمع ما في المجال التِّقْنيّ والاقتصادي لا يعني بالضرورة تقدُّمه في المجال الاجتماعي والخُلُقي[1].

---

(١) المرجع السابق، ص (٥٣-٦٢).

هـ- الأنثروبولوجيا المعاصرة والتوجهات التنموية:

انطلقت الدراسات الأنثروبولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين نحو دراسة النظم الاجتماعية كما هي في الوقت الراهن دون ضرورة البحث في أصولها التطورية أو انتشارها الحضاري، فقد اتجهت البحوث نحو تحديد خصائص النظام ووظائفه وأسلوب تفاعله وطريقة تواؤمه مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى بما يؤدي إلى ديمومة النظام الاجتماعي واستمراره، وقد ترك نجاح المدرسة الوظيفية في مجال دراسات علم الحياة أثرَه الواضح في بعض الدراسات الاجتماعية وبخاصة الأنثروبولوجية.

وقد اتخذت البحوث الأنثروبولوجية المعاصرة طابعاً جديداً، بالإضافة إلى التوجه السابق لها، فاهتم بعض الباحثين بدراسة المجتمعات المتمدنة؛ كالأحياء السكنية في المدن الكبيرة والمجتمعات المحلية في القرى، فبُذِلَت جهود كبيرة من قبل علماء الأنثروبولوجيا في كثير من الدول النامية لفهم آلية عمل التغيرات الاجتماعية التي تتم في القرى والمزارع والمجتمعات المحلية، وأسلوب انتقال المجتمعات من مراحل قطف الثمار والزراعة والصيد إلى أسلوب آخر في الحياة، يرتبط بالسدود والمصانع والمزارع الجماعية، وكان لهذا أكبرُ الأثر في دفع مسيرة الأنثروبولوجيا في وجهة تنموية تدرس مسائل التكيف الحضاري والمشكلات التي ترتبط بقضايا التنمية وتحول المجتمعات بشكل عام، وقد توافق ذلك الاتجاه التنموي المعاصر مع جهود كثير من المنظمات الدولية

التي رأت أن تخلُّف بعض القطاعات في المجتمعات المتخلفة يؤثر بالضرورة في مسار التقدم في المجتمعات النامية والمتقدمة على حد سواء وبخاصة في نطاق الصحة والتعليم، وما إلى ذلك؛ فانتشار وباء الكوليرا في منطقةٍ ما من العالم يهدد الوضع الصحي في أجزاء أخرى منه؛ لذلك اتجهت المنظمات الدولية لدراسة الأوضاع الصحية في كثير من المجتمعات المتخلفة؛ حفاظاً على الأوضاع الصحية في العالم أجمع، وتحقيقاً للتقدم الصحي في المجتمعات المحلية.

وظهرت دراسات متخصصة بتحديد معالم حضارات المجتمعات المتقدمة، كالمجتمع الأمريكي، والروسي، والصيني، كما انصب اهتمام بحوث أخرى على دراسة عمليات الصراع والامتزاج بين الحضارات المتقدمة التي تتلاقى في حالات الهجرة أو الحروب، كالدراسات التي بينت أوضاع المهاجرين اليابانيين الذين هاجروا إلى أمريكا وعاشوا في مجتمعات شبه مغلقة، واحتفظوا فيها بلغاتهم الأصلية وعاداتهم وتقاليدهم.

وقد استطاعت الدراسات الأنثروبولوجية في بعض بلدان العالم الثالث أن تخرج من أسوار العلماء الأجانب وموظفي الحكومات الاستعمارية والإمبريالية. فالأنثروبولوجيا ترتبط بالفلسفة الاجتماعية العامة للعلم، ومن خلال الالتزام بنتائج البحث تحررت من تاريخها القديم المرتبط بالاستعمار وتحولت إلى أداة في يد العلماء الوطنيين، الذي امتلكوا ناصية البحث في هذا العلم، وأخذوا يسخِّرون معرفتهم النامية الجديدة في خدمات عمليات التنمية لبلادهم.

ثانياً: مصادر الانتشار:

أما بالنسبة للمصادر التي أسهمت بطريق مباشر، أو غير مباشر في انتشار الأنثروبولوجيا ذلك العلم الجديد الذي يدرس الإنسان دراسة شمولية وتاريخية فنذكر:[1]

١- الجمعيات والمجلات العلمية:

لعبت الجمعيات العلمية دوراً هاماً كمنتديات لبلورة الفكر الأنثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية. ففي هذه الجمعيات كان يجتمع رجال الفكر والسياسة وعلية القوم الذين استطاعوا بأموالهم تمويل كثير من البحوث، وتبني المشاريع العلمية والدراسات الأكاديمية، وقبل أن تقام جمعيات أنثروبولوجية متخصصة، كان المهتمون بالدراسات الأنثروبولوجية أعضاء عاديين في جمعيات ثقافية عامة، كما كان الحال (مثلاً) في الولايات المتحدة بالنسبة للجمعية الأمريكية للفلسفة. ويذكر مؤرخو الأنثروبولوجيا أن أول جمعية مهنية متخصصة وجهت جهودها إلى الدراسات الأنثروبولوجية قد أنشئت في باريس عام (١٨٠٠) تحت اسم جمعية «ملاحظو الإنسان» وهي الجمعية التي أنشأها مجموعة من المهتمين بالدراسات الإنسانية، بهدف القيام برحلات خارج أوروبا لاستطلاع موضوعات أنثروبولوجية عديدة وغيرها من الموضوعات عن الإنسان والحياة الاجتماعية للشعوب الأخرى؛ رغم أن هذه الجمعية لم

---

(١) كل ما يتعلق بهذه الفقرة من كتاب قصة الأنثروبولوجيا (بتصرف).

obeikandl.com

تستمر طويلاً، كما أن نتائج الرحلات لم تكن مثيرة للغاية، إلا أنّ أهميتها كانت في إبراز إمكان قيام جمعيات أكاديمية متخصصة في الأنثروبولوجيا خاصةً إذا كانت موضوعاتها قد بدأت تستحوذ على اهتمام الناس عامة في بلاد أوروبا الغربية، والولايات المتحدة (أيضاً).

ومرة أخرى نجد لباريس قصب السبق حين أنشأت «الجمعية الأثنولوجية» عام (١٨٣٩) وتكونت بعدها بثلاث سنوات (١٨٤٢) «الجمعية الأمريكية الأثنولوجية»، ثم أقامت بريطانيا في العام التالي جمعيتها الأثنولوجية، التي تحولت فيما بعد إلى «المعهد الملكي الأنثروبولوجي لبريطانيا العظمى وأيرلندة» ويعد هذا المعهد أكبر مدرسة للفكر الأنثروبولوجي في بريطانيا[1]. ويجدر التنويه إلى «رابطة تقدم العلوم»، التي أنشئت في بريطانيا عام (١٨٤٦)، ومثيلتها في أمريكا التي تكونت عام (١٨٥٢) قد أدتا دوراً هاماً في عرض القضايا والمسائل الأنثروبولوجية ومناقشتها، كما عززت الاتجاه القائل بإمكان قيام علم مستقل ومتخصص في تلك القضايا. ولم يقتصر الأمر على قيام جمعيات بفرنسا وإنجلترا وأمريكا فحسب بل نجد أن شعبية الأنثروبولوجيا قد عمت مدنًا أخرى مثل: موسكو، ومدريد، وبرلين، وفينَّا، وتكونت على أثر ذلك جمعيات أثنولوجية كثيرة بلغت نحو (٤٠) جمعية في عام (١٨٧٠)، بينما اختفى بعضها الآخر، أو عدل من تكوينه أو اسمه. وجدير بالذكر في هذا المقام أن الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية التي أنشئت عام (١٩٠٢)

(١) شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، ص (٨٣٠).

obeikandl.com

لاتزال قائمة، وقد عقدت في عام (١٩٨٤) اجتماعها السنوي الثالث والثمانين بمدينة دينفر بولاية كولورادو.

وبصدد الدوريات العلمية فقد توالى ظهورها (خاصة) خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كل من أوروبا وأمريكا، نذكر على سبيل المثال لا الحصر المجلة الألمانية التي حررها (لازاروس واشبنهال) والتي صدرت عام (١٨٥٩)، وقد اتجهت بحوثها وجهة سلالية، ونفسية. وفي فرنسا أصدر (بول بروكا) «مجلة الأنثروبولوجيا» عام (١٨٧٢)، وكانت اهتماماتها الرئيسة تدور حول الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية). ومن فرنسا أيضاً صدرت في نهاية القرن التاسع عشر وعلى وجه التحديد عام (١٨٩٨)، «حولية علم الاجتماع» التي أصدرها (إيميل دوركيم)، والتي تولى رئاسة تحريرها فيما بعد ابن أخته (مارسيل موس). وكانت هذه المجلة بمنزلة منبر ثقافي، ومنتدى علمي للحوار الشيق بين العلماء الفرنسيين، وغيرهم من الدول الأخرى حول القضايا الاجتماعية، والموضوعات الأثنولوجية، ومن إنجلترا نذكر مجلة الإنسان التي أصدرها ولا يزال المعهد الملكي الأثنولوجي (المشار إليه سابقاً). ومن الجدير بالذكر أن الجرائد اليومية، والمجلات الثقافية قد لعبت دوراً هاماً في إحاطة الناس (العاديين) علماً بما يجري من حوار علمي حول قضايا الإنسان، أو عن اكتشافات أثرية لماضيه أو كيانه العضوي؛ الأمر الذي خلق جواً من الرغبة في المزيد من المعرفة عن تلك الموضوعات، ولفت النظر إلى أهمية الدراسات الأنثروبولوجية، وكسب شعبية لها، ومهَّد لقبولها كعلم جديد.

ب- الحكومات والجامعات والمتاحف:

لعبت الحكومات دوراً هاماً جداً في التمهيد لبلورة الأنثروبولوجيا كعلم بقصد الاستفادة العلمية من أبحاثه، كما قامت الجامعات والمتاحف بالدور نفسه في إطار التطلعات الأكاديمية لهذا العلم الجديد وفي تعزيز كيانه المستقل، ولعل ما حدث في أمريكا يوضح أكثر من غيره أهمية دور الهيئات الإدارية والأكاديمية، فقد نظر الأنثروبولوجيون الأمريكيون، والأوروبيون على حد سواء إلى جماعات الهنود الحمر على أنها تمثل نماذج حية لمراحل حضارية سابقة يفترض أن يكون المجتمع الأوربي ذاته قد مرَّ بها، وبالتالي فهي تقدم لهم حقلاً خصبًا وميدانًا عمليًا للدراسات الحضارية، وما يتصل بها من نواح لغوية أو سلالية أو ثقافية في إطارها المادي أو المعنوي. فإلى جانب الجمعية الأثنولوجية الأمريكية التي أنشئت عام (١٨٤٣) - كما سبق أن أشرنا - تكونت مؤسسة سميسونيان الشهرية عام (١٨٤٦) بتدعيم من الحكومة لتعمل كمركز توثيقي للأبحاث العلمية كافة، ومن بينها الدراسات الأنثروبولوجية، وفي عام (١٨٨٣) مولت مؤسسة سميسونيان دراسة عن الثقافة واللغة بين سكان أمريكا الأصليين، حيث استخدم فيها الاستبيان كوسيلة لجمع المادة التي لم تقتصر على ما يتصل باللغة، وإنما تضمنت أيضاً بيانات عن الإسكان، والفن، والحرب، والطب، والأدب، والأدوات، وكل ما يتصل بالجانبين المادي والمعنوي للثقافة. وقد قام (جورج جيبز) الذي أشرف على الدراسة بإجراء دراسات مقارنة، كما أنه اهتم بتتبع النواحي الوراثية بين القبائل المتعددة، وقد

مولت المؤسسة أبحاثاً أخرى ذات صلة مباشرة بالدراسات اللغوية والثقافية بصفة عامة مثل: أبحاث جون باول في دراسته للغات الهنود الحمر عام (١٨٧٧).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن الحكومة الأمريكية في سعيها نحو التعامل مع قبائل الهنود الحمر والعمل على استقرارها فيما أعد لها من مستوطنات قد أنشأت في عام (١٨٧٩) «مكتب الأثنولوجيا الأمريكية» بقصد الاستفادة من نتائج الأبحاث الأثنروبولوجية عن سكان أمريكا الأصليين في رسم السياسات الاستيطانية والإدارية لمجتمعات الهنود الحمر. ومن الجدير بالذكر أيضاً، أن الأنثروبولوجيين الذين عملوا في هذا المكتب لم يتمكنوا من التوفيق بين تطلعاتهم الأكاديمية والرغبات العملية للإداريين في هذا المكتب الذي يتحتم عليهم تزويد أعضاء مجلس الكونجرس بالتقارير السريعة والبيانات المباشرة التي تساعد على رسم سياسة معينة، وليس لتدعيم نظرية خاصة أو رفضها.

أما عن دور المتاحف فقد كان لها وظيفة هامة بالنسبة للدراسات الأركيولوجية والأنثروبولوجيا الطبيعية، وعن دور الجامعات تكتب (ريجنا دارنيل) «أن البرامج الجامعية كانت بطيئة المنشأ، ولعل أكثر تلك البرامج أهمية كان قد تبلور في جامعة هارفارد بإشراف (فرايد ريك بوتنام) الذي ربط برنامجه بإقامة متحف بيبودي للأركيولوجيا والأثنولوجيا بأمريكا. ونجد أيضاً أن (فرانز بواز)، (وكان أول من عين رئيساً لقسم الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا عام ١٨٠٠) قد ربط برنامجه الأكاديمي

بالجامعة بمقتنيات متحف التاريخ الطبيعي، إلا أن هذا لم يدم طويلاً واستقلت معظم البرامج الأكاديمية الجامعية عن المتاحف.

ومن الجدير بالذكر أنه في عام (١٨٨٧) أصبح (دانيل برينتون) أول أستاذ للأنثروبولوجيا في جامعة بنسلفانيا رغم أنه لم يكن أنثروبولوجيا متخصصاً. وينحصر إسهام (برينتون) في تعزيز الاتجاه نحو إنشاء علم متخصص لدراسة الإنسان في إطار شمولي، كما أنه حافظ على شعبية هذا النوع من الدراسات في الدوائر الأكاديمية المتخصصة، وبين المثقفين عامة. ومن الأمور التي كرس لها (برينتون) كتاباته التركيز على دراسة اللغة لفهم المراحل التي مرت بها الإنسانية قبل تاريخها المكتوب. وقد رأى أن لغات قبائل الهنود الحمر تمثل الحالة الأولى التي كانت عليها اللغات الأوروبية قبل تطورها. ويقول كذلك: إنه يتعين علينا أن ندرس جميع الشعوب والثقافات قبل أن نشرع في كتابة التاريخ الحضاري للإنسانية.

وإذا انتقلنا إلى أوروبا نجد أنه لم تبدأ قبل العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر بوادر الاستقلالية الأكاديمية للأنثروبولوجية، وكذلك التخصصية المهنية، وبخاصة في إطار تدريس الأنثروبولوجيا بالجامعات، ومنح الألقاب العلمية. فمن بين مجموعة كبيرة من المستشرقين الغربيين ينظر (إيفانز بريتشارد) إلى (وليم روبرتسن سمث) على أنه أحد الشخصيات البارزة بينهم إن لم يكن أكثرهم تخصصاً في الاتجاه الأنثروبولوجي. ففي عام (١٨٨٣) تقلّد منصب أستاذية الدراسات العربية بجامعة كمبردج، وطبق في تدريسه منظوراً أنثروبولوجياً لدراسة تقاليد الديانات السامية

وشعائرها، إلا أن أول كرسي لأستاذية الأنثروبولوجيا الاجتماعية يرجع إلى عام (١٨٨٤) في جامعة أكسفورد وقد شغله (إدوارد تايلور).

ج- الرحالة والمبشرون والإداريون:

شكلت هذه المجموعة مصدراً هاماً للمعلومات الوصفية عن المجتمعات البدائية خلال القرن التاسع عشر، الأمر الذي استفاد منه المفكرون والباحثون في تكوين نظرياتهم وتدعيمها بالأمثلة والأدلة. فقد استمرت كتابات الرحالة والمبشرين في تقديم وصف للتقاليد والعادات للشعوب والأقطار التي زاروها أو عاشوا بها بعض الوقت، وإن لم تخل تسجيلاتهم من التحيز الثقافي والانطباعات الشخصية. ومع ذلك وكما يذكر (د. أحمد أبو زيد) أنه كان هناك بعض الرحالة «الذين اتصفت كتاباتهم بالجدية والأحكام الدقيقة، والبعد عن المغالاة، مثلما فعل (آندروباتل) (مثلاً) عندما وصف سكان الكونجو، أو ما كتبه القسيس اليسوعي البرتغالي (جيروم لوبو) عن الأحباش في كتابه «رحلات بنكرتون» الذي ترجمه (دكتور جونسون) في أوائل القرن التاسع عشر إلى الإنجليزية، ويقول عنه: إنه أفلح بطريقته البسيطة الخالية من التكلف في أن يصف الأشياء كما رآها، وأن يصور الطبيعة من واقع الحياة ذاتها، كما أنه يعتمد على حواسه وليس على مخيلته. بل إن بعض هؤلاء الرحالة والمبشرين كان يعتمد كثيراً على المقارنات بين ثقافات الشعوب البدائية، والثقافات والحضارات القديمة العريقة، مثلما فعل الأب (لافيتو) في

مقارنته بين عقائد وعادات بعض قبائل الهنود الحمر من ناحية، وأهالي إسبرطة وكريت من الناحية الأخرى. أو مثلما فعل الرحالة الفرنسي (دولاكريكانيير) في محاولته (توضيح) أوجه الشبه بين عادات الهنود والتقاليد اليونانية والرومانية؛ وذلك بغية الوصول إلى فهم أفضل للأشعار المقدسة والكتاب الكلاسيكيين.

وإلى جانب هذه الجدية والموضوعية - إلى حد ما - في بعض كتابات الرحالة والمبشرين خلال القرن التاسع عشر، يلفت (جان بواريية) نظرنا إلى أن بعض ما كتبه الرحالة والمبشرون قد تم في إطار اتباعهم إرشادات منهجية معينة حول محتوى المادة وطريقة جمعها. وذكر أن عالم الطبيعة (وليم إدارد)، مؤسس الجمعية الأثنولوجية (المشار إليها سابقاً) أعد واحداً من أهم الاستبيانات الأثنولوجية وصاغه كمرشد لجمع البيانات؛ ولذلك حمل اسم (مرشد عام للرحالة). ويذكر (بواريه) عدة أسماء وأعمال لرحالة يصفهم بأنهم ملاحظون جيدون ورجال بحث صابرون، وأنهم قدموا دراسات أثنوجرافية تستحق الإعجاب في المنهج والعرض. ويذكر (بواريه) أن من بين هؤلاء، الألماني (كلابورت) الذي نشر عام (١٨١٢) وصفه عن «العلاقات بين السلالات القوقازية والجورجية نسبة إلى جورجيا بالاتحاد السوفييتي»، وكذلك الرحالة السويسري (لويس بوركهارت) الذي كتب عن رحلاته في سورية وفزان والوطن العربي، والتي استغرقت نحو عشر سنوات من عام ١٨١٩.

وفي هذا الصدد، يذكر (بواريه) نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهي:

أن الأثنولوجيا (في القرن التاسع عشر) قد تقدمت عن طريق الارتباط الوثيق بين ما يقدمه الرحالة من معلومات وما يصل إليه المفكرون أو الفلاسفة من نظريات. وكما كانت ملاحظات الرحالة تعد مصدراً قيماً للمعرفة كانت المعلومات الواردة من المبشرين والحكام الإداريين بالمستعمرات لها أهميتها الكبيرة أيضاً. وفي إطار ذلك الارتباط المشار إليه آنفاً بين «المادة الحقلية» و«النظريات» - إذا صح التعبير - يذكر (إيفانز - بريتشارد) النظريات الأنثروبولوجية قد أثرت تأثيراً واضحاً في كتابات الرحالة والمبشرين والإداريين على حد سواء، وإن اختلف نوع التأثير باختلاف الكاتب. ويقول أيضاً إنه «لم يكن هؤلاء الكتاب من المبشرين والحكام يكتفون بمتابعة المشكلات النظرية التي كان يثيرها العلماء والاطلاع عليها، وإنما كانوا يتصلون في كثير من الأحيان اتصالات مباشرة بأصحاب هذه النظريات أنفسهم. ولقد أصبح من المألوف أن يرسل العلماء من أوطانهم قوائم تحوي أسئلة عن المعلومات ليجيبوا عنها، ولعل أكثر هذه القوائم شمولاً وشهرة هي «مذكرات واستفسارات عن الأنثروبولوجيا» والتي نشرت عام (١٨٧٤) والتي بدأ المعهد الملكي الأنثروبولوجي في عام (١٩٤٩) إصدارها في طبعات جديدة.

هذا ولم يقتصر الأمر على هذا التلاحم بين المادة الحقلية وتكوين النظريات الأثنولوجية، وإنما نشأ أيضاً اتجاه قوي، وممارسة فعلية، لاستخدام المعرفة الأنثروبولوجية لخدمة غايات الإدارة الاستعمارية. وهذا الارتباط بين البحث الاجتماعي عامة والأهداف العملية للسلطة

الاستعمارية، قد عبر عنه بوضوح عدد كبير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر، إلى حد أنه نظم في باريس مؤتمر دولي عام (١٩٠٠) لتناول موضوع «علم الاجتماع الاستعماري» وكان من بين أهدافه «دراسة المسائل الأخلاقية والمجتمعية المرتبطة بحركة الاستعمار». وبشأن هذا المؤتمر يكتب (محمد وقيدي) في كتابه القيّم «العلوم الإنسانية والأيدلوجيا»: «إن الحركة الاستعمارية كانت عندئذ في حاجة إلى البحث عما يدعم هيمنتها، وإلى معرفة الخطوط العامة للسياسة التي يمكن أن تحافظ على هذه الهيمنة. ويمكننا أن نقول بهذا الصدد: إن العلاقة كانت جدلية بين المعرفة الاجتماعية كنظرية والسياسة الاستعمارية كواقع مجتمعي تاريخي، فالسياسة هنا تمد المعرفة بموضوعها وبالاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه، والمعرفة تمد السياسة بالمعطيات التي تساعده على تنفيذ مشروعها وعلى تبرير مشروعيتها كما تمدها بصيغة للتعبير عن أهدافها. لقد أدركت الهيمنة الاستعمارية أن حكم الأهالي لا يستقيم إلا بمعرفة متعمقة للغاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، وتهتم العلوم الاجتماعية الاستعمارية بهذه المعرفة الضرورية للحفاظ على هيمنتها ولضمان استمرار هذه الهيمنة».

هذه الظروف أو الأجواء المشار إليها (آنفاً) ساعدت جميعها على بلورة الأنثروبولوجيا إلى حد دفع بعض المفكرين والمهتمين إلى ترك تخصصاتهم الرئيسة وطرق أبواب هذا الفرع الجديد من المعرفة. فمنذ بداية ستينات القرن التاسع عشر - ولمدة ثلاثة عقود تقريباً - ظهرت تباعاً عدة

مؤلفات أثنولوجية لمفكرين من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا. نذكر مثلاً أنه في عام (١٨٦١) أصدر (هنري مين) كتابه عن «القانون القديم»، ثم في (١٨٦٤) ظهر كتاب الفرنسي (فوستيل دوكولين) (١٨٣٠-١٨٦٩) بعنوان «المدينة القديمة» وبعد سبع سنوات أي في عام (١٨٧١) ظهر كتاب (أدوارد تايلور) الشهير بعنوان «الثقافة البدائية» وتلا ذلك صدور كتاب (لويس مورجان) عن «المجتمع القديم» في عام)١٨٧٧. ومرة أخرى وبعد سبع سنوات أيضاً أي في عام (١٨٨٤) ظهر كتاب (فريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥) عن «أصل الأسرة الملكية الخاصة والدولة». أما الجزء الأول من كتاب جيمس فريزر (١٨٥٤-١٩٠١) الشهير «الغصن الذهبي»: دراسة في السحر والدين، فقد ظهر في عام (١٨٩٠).

هذه المؤلفات وغيرها لا تشير إلى مجرد توافق زمني وإنما تعكس اهتماماً مركزاً حول اتجاه فكري معين ساد إبان هذه الفترة ودفع بالأنثروبولوجيا دفعة جديدة من حيث تركيزها على مجال الدراسات الأثنولوجية التي تهتم بالدراسة الوصفية والتحليلية المقارنة للثقافات الإنسانية. ورغم أن دارون كان قد قدم نظريته في إطار مبادئ علم الطبيعة والأحياء والتشريح إلا أن غالبية المفكرين الاجتماعيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تراءى لهم إمكان تطبيق فكر دارون عن التطور القائم بين المجتمعات الإنسانية على أساس التقدم والتحضر عند الغربيين. ونشير في هذا الصدد إلى كتابات الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣). ومن الطريف أن نذكر أن الفيلسوف الإنجليزي

كان مهندساً، إلا أنه كان أيضاً عالم نفس واجتماع، كما كان أول دعاة نظرية التطور.

يرى (سبنسر) أن المجتمعات تتطور من مجتمعات قائمة على الحرب إلى مجتمعات قائمة على الصناعة، وأن الظواهر الاجتماعية تتطور من البساطة إلى التعقيد، ومن التجانس إلى التنافر، الأمر الذي يسبب التغير أو التقدم. وقد حال تطبيق قانون الاختيار الطبيعي على المجتمعات البشرية.

غير أن هذه النظرة لقيت الكثير من النقد على أساس أن الحقائق أو الوقائع الاجتماعية لا يجب تفسيرها وتحليلها إلا في إطار المناهج والقوانين الاجتماعية لا البيولوجية، وهو أمر دعا إليه بوضوح وجلاء العالم الفرنسي (إمل دوركايم) في كتابه «قواعد المنهج في علم الاجتماع» الذي نشره عام (١٨٨١). وهكذا اهتم أصحاب النظرية التطورية بدراسة الثقافة الإنسانية من خلال البحث عن الأصول التاريخية للسمات الثقافية، حيث اعتقد هؤلاء العلماء أن الثقافة هي نتيجةُ تراكم النشاط الإنساني عبر الزمن، وأن التقدم هو الغاية الأساسية من التطور الإنساني. وقد جاء هذا رافضاً للنظرية القائلة باحتمال ارتداد الإنسان أو الشعوب أو انتكاسها من حالة متقدمة إلى وضع أدنى، ويرى التطوريون أن المجتمعات الإنسانية كلها تتغير وفقاً لقانون ثابت للتطور يقوم على التقدم من مرحلة دنيا إلى أخرى أرقى منها، حتى تصل في النهاية إلى قمة الحضارة الإنسانية كما كانت ممثلة حينذاك في المجتمع الأوروبي.

ويمثل التقدم في نظرهم ثمرة التكامل في الأدوات المادية وثمرة التعقيد في العلاقات خلال مراحل تطورية ومركبة، وأصبح معيار التقدم عندهم يتمثل جلياً في التطور العلمي التكنولوجي والاقتصادي.

علاوة على فكرة التقدم تقوم نظرية التطور الثقافي على أساس أنه لا يمكن فهم العقل الإنساني إلا بربطه بالتاريخ الذي يمكن من خلاله فقط فهم الحياة الإنسانية، والوصول إلى القوانين التي تحكم مسارها. فتاريخ البشر واحد على أساس وحدة الفكر الإنساني، أما التمايز بين الثقافات فهو وليد ظروف تاريخية معينة، فالمجتمعات قد عدت على الدوام بمنزلة وجود متواصل متجانس مؤلف من طبقات تطورية وأقسام موازية، يسير فيها التطور حتماً في خط مستقيم، ولابد من جميع المجتمعات أن تمر بها، ويقوم جوهر نظرية التطور على الافتراض بأن تاريخ الجنس البشري قد عرف شكلاً موحداً في نشأته، وفي تجربته، وفي تقدمه، وأن اختلاف درجات هذا الشكل هو في حقيقة الأمر درجات للتطور ذاته، بحيث تكون كل درجة وليدة سابقتها ومساهمة في تشكيل تاريخ ما بعدها (أي المستقبل).

إن هذه التجربة الإنسانية الواحدة تقوم على افتراض وجود وحدة سيكولوجية يشركون فيها جميعاً على اختلاف ثقافاتهم.

وفي هذا الإطار نشر (لويس مورجان) كتابه «بحوث في التاريخ المبكر للجنس البشري» عام (١٨٦٥)، وعرض فيه نظريته عن التطور الثقافي للمجتمعات الإنسانية التي تستند إلى فكرة التقدم الاطرادي للشعوب والثقافات، وانتقالها من حالة الهمجية أو البدائية (التي رآها متمثلة في

المجتمعات غير الغربية حينذاك) إلى حالة التحضر والمدنية المماثلة لأوضاع الثقافة والمجتمع الأوروبي في عصره. وقد استخدم (تايلور) مفهوم (الرواسب) المستمد من الدراسات العضوية والأثرية ليكشف بها عن الرواسب الثقافية عند الشعوب، الأمر الذي يساعده على وضعها في مرحلة معينة من مراحل التقدم. وتقوم فكرة الرواسب على أساس أن بعض سمات المجتمعات المعاصرة تمثل متخلفات أو رواسب للأشكال الأولية والمتتابعة التي مرت بها هذا المجتمعات، وتتضمن هذه الرواسب مثلاً - في نظرية (تايلور) - بعض الألعاب والمأثورات والتعبيرات اللغوية، فهو يرى أن لعبة الرمي بالقوس والسهم تستخدم كأداة رئيسة للحصول على الطعام وليس للهواية أو الرياضة، وعلى الرغم من أن مفهوم الرواسب لاقى الكثير من النقد من ناحية استخدامه كأساس لوضع تفصيل دقيق لمسار تقدم المجتمعات الإنسانية وتطورها، إلا أن فكرة التطور والتقدم الإنساني لاقت قبولاً عاماً في أوربا.

ونود الإشارة هنا - بجانب (تايلور) و(فريزر) في أوروبا - إلى الأمريكي (لويس مورجان) الذي قدم لنا نظرية لتطور الثقافات الإنسانية من حيث انتقالها من حالة الوحشية (التي قسمها إلى مرحلة دنيا وأخرى متوسطة وثالثة عليا) إلى حالة أرقى نسبياً أطلق عليها لفظ «البربرية»، والتي رأى أنها تطورت أيضاً خلال ثلاث مراحل مشابهة للشكل الأول للحياة الإنسانية أي (الوحشية). أما عن المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة الحضارة.

وقد أدخل (مورجان) بعض المقاييس والمعايير المادية التي استطاع على أساسها أن يضع هذا التقسيم أو التصنيف. وبهذا يُعد كل من (تايلور ومورجان) من الرواد الأوائل في بلورة النظرية التطورية. ونرى أنه إذا كان الفضل يرجع إلى (تايلور) في وضع أصول دراسة علم الثقافة عامة فإن (مورجان) قد بدأ دراسات القرابة التي أصبحت منذ ذلك الوقت وحتى الآن من أهم الموضوعات الأنثروبولوجية. ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه على الرغم من تركيز (تايلور) على دراسة «الثقافة البدائية»، إلا أن فهمه للأنثروبولوجيا قد تضمن الدعوة إلى دراسة كل أنواع الثقافات، بدائية كانت أم متحضرة، وسواء أشرنا هنا إلى (تايلور) و(مورجان)، أو إلى غيرهما من رواد النظرية التطورية، فمن الهام أن نوضح أن الأنثروبولوجيا في مرحلة نشأتها قد قامت على فكرة علماء ذوي تخصصات متباينة، الأمر الذي أعطى الأنثروبولوجيا مزيجاً هاماً من المنطلقات الفكرية المفيدة في إطار الدراسة الشمولية للإنسان؛ ولهذا جاءت كتاباتهم موسوعية، غزيرة المادة، وأضحت أعمالهم جزءاً من التراث الكلاسيكي للفكر الإنساني.

obeikandl.com